أئمة الخفاء فى المسيحية

مـــــــــــانـــى

أريـــــــــــوس

نـــســـــطـــور

ولـــيم مـــيـــلـــلـــر

چـــوزيف ســـيـــمث

تـــشـــارلـــز راسل

راســـبـــوتـــين

ديـــفـــيـــد كـــورش

ديـــفـــيـــد چـــورچ

مانى

ككل أصحاب البدع والمذاهب المنحرفة كان لابد للأسطورة أن تحتل مكانة هائلة فى حياته.. وتضفى هالة على مولده.. وفى حالة «مانى» «نبى المانية» المزعوم بدأت الأسطورة مع والده «فاتك» الذى كان يبحث عن الله بين معابد الآلهة.. ورسائل التوحيد التى وصلت إلى موطنه محملة بأساطير الأولين بعد أن قطعت آلاف الأميال فى الصحارى والمدن فوصلتهم بعد أن أضاف إليها الكهنة أسرارا وحكايات ارتبطت بمصالح الأباطرة وسطوة الملوك المتنازعين على حكم الأرض والاستيلاء على ثرواتها.

فى بداية القرن الثالث الميلادى ولد «مانى» صاحب «المانوية».. ونسب لنفسه الكثير وكان مما نسبه لنفسه أنه خليفة المسيح عيسى عليه السلام وامتداد لدعوته وصاحب البشارة التى قالها عيسى.. عاش مانى فى جو شديد الاضطراب حفل بالحروب والفتوحات والتغييرات والصراعات ما بين الأديان السماوية والوضعية.. تأثر بكل هذا فخرجت دعوته حافلة بالأساطير والخرافات والصراعات التى انتقل بها من الأرض إلى السماء ما بين إله النور وإله الظلام.. وحاول إرضاء الجميع.. فادعى أن دعوته ضمت كل الآلهة والأنبياء الذين سبقوه ما عدا اليهودية ونبيها موسى عليه السلام وفى محاولته لإرضاء الجميع.. غضب منه الجميع وحاربوه رغم انتشار دعوته فى سوريا والعراق ومصر وبعض أجزاء من الجزيرة العربية وأطراف الهند وإيران.. وعاشت أفكاره ودعوته مئات السنين ثم خفتت حتى كادت تختفى تماما ولم يبق منها إلا بعض آثار المانوية الفنية فى الزخرفة والفن وبعض موديلات الملابس التى ترتديها بعض الطرق الصوفية.. بل إنه مازال يطلق فى بعض الأماكن من المعالم على من برع فى الرسم والتصوير بأنه «مانى».

قبل أن يولد "مانى" كان الصراع على أشده ما بين القوتين العظميين فى العالم القديم، الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية وما تعتنقه الاثنتان من ديانات

كان جزءا أساسيا من الصراع فأباطرة الرومان كانوا يتأرجحون ما بين عبادة الأوثان والإيمان بالمسيحية وملوك الفرس وما يعتنقونه من الزرادشتية وسيطرة الكهنة ومعابد النار قبل أن يولد مانى بعدة سنوات استطاع «أردشير» الملك الساسانى أن يبسط نفوذه بعد سلسلة من المعارك على إيران الشرقية ويمتد نفوذه ليصل إلى حدود الهند الشمالية الغربية وبلاد الرافدين وأصبح متربعا على الإمبراطورية الفارسية التى كانت تتمازج فيها الثقافات والديانات المختلفة والعديد من الطوائف والفرق فقد كان أبناء الطبقات العليا من الفارثيين والساسانيين يقدسون الربين «مثرا» و"أناهى"د.. وآمن بالزرادشتية عدد كبير من الفرس من سكان بلاد الرافدين.

وفى نفس الوقت لم يتخل أبناء بابل والأماكن القريبة منها عن عبادة آلهتهم المحليين مثل عشتار، أربيل وكانت تلك الآلهة تعبد بجوار اليهودية التى كان يعتنقها كثيرون من أبناء بابل حتى ظهرت المسيحية ووجدت لنفسها مكانا فى بعض الأقاليم الفارسية.

ومن بين كل الأديان والمعتقدات كان «فاتك بابك بن آبى برزام» سليل الأمراء الفارثيين المحاربين حائرا يبحث عن الله بين كل الأديان ومعابد الآلهة التى عرفها فى بلاد أبيه «همدان» إيران حاليا وبين معابد بابل.. فلم يكن يقام احتفال لأحد الآلهة حتى يسرع «فاتك» بالمشاركة فيه باحثا عن سكينة قلبه الضائعة.. وكانت «مريم» زوجته التى لم يمض على زواجه منها سوى أشهر معدودة تودعه بقلب مرتجف متمنية له الحصول على ما يتمناه من سكون وهداية فى رحلة بحثه.. وفى المرة الأخيرة التى خرج فيها فاتك قاصدا «بيت الأصنام» فى «المدائن» عاصمة بلاد بابل من أجل حضور الاحتفال الكبير شعرت مريم بضيق شديد وانقبض قلبها وبدأ ظله يختفى من أمامها ولم يصرفها عن هواجسها سوى حركة بطنها المتموجة.. فشعرت بأن الجنين الذى بدأ ينمو داخل رحمها يمنحها الصبر ويؤازرها ويطمئنها.

كانت مريم محقة فى مخاوفها.. فمنذ خروج زوجها المحارب صاحب الملابس الأنيقة التى تنم عن طبقته المميزة.. لم يعد مرة أخرى إلى منزله إلا بعد عدة سنوات من أجل تنفيذ مهمة خاصة جدا.

فبعد وصول «فاتك» إلى بيت الأصنام للاحتفال قيل إنه سمع صوتا يهتف به داعيا

إياه باسمه قائلا له (يافاتك لا تأكل لحما ولا تشرب خمرا.. ولا تنكح بشرا) وتكرر ذلك النداء ثلاثة أيام.. فأيقن أن ما كان يبحث عنه قد وجده.. وأن ذلك النداء ما هو إلا صوت إلهى يأمره بالتخلى عن الحياة الدنيا بكل زينتها ومباهجها والالتحاق بالبسطاء من عبدة الله..

كانت تلك هى الرواية التى رددها فيما بعد أتباع المانية وإن كان الأقرب إلى العقل والمنطق الرواية الأخرى التى قال بها البعض عن لحظات التحول فى حياة فاتك من أنه التقى بأحد أتباع طائفة «المغتسلة» أو «أصحاب الملابس البيضاء» الذى أقنع فاتك بتعاليم طائفته وأقنعه باتباعه وترك الحياة خلفه..

وتبدو الرواية الأخيرة أقرب إلى التصديق.. فبعد أن خلع «فاتك» ملابسه الفاخرة ارتدى ثيابا بيضاء بسيطة كانت هى الملابس الوحيدة المسموح لطائفة المغتسلة بلبسها.. رحل إليهم بالقرب من نهر دجلة ليعيش داخل مستعمرة تضم أبناء الطائفة الذين كانوا يحملون فى قلوبهم وعقولهم دين أنبيائه آدم ويوحنا المعمدان ويسوع الناصرى ويبتهلون إلى «توما» الذى يقولون عنه إنه توأم عيسى وإلى نبى مجهول يعلمون أن عيسى بشر به وأنه سيأتى فى يوم من الأيام ليبحث عن أتباعه الأبرار الأطهار الذين يغتسلون بالماء ويتطهرون به وينغمس فيه التابع الجديد ليغتسل من الماضى ويتخلص منه ولتبدأ مع ذلك الطقس الحياة الجديدة.. وهو ما تم مع «فاتك» فما إن وطئت قدماه مستعمرة «المغتسلة» حتى اجتمع حوله أبناء الطائفة فى احتفال قادوه فيه إلى الماء ليعمد ثلاث مرات متتالية تخللها جز شعر رأسه ولحيته.. لتبدأ بعد ذلك قراءة الأدعية والتراتيل ودراسة النصوص المقدسة والإنجيل.. واتضحت ملامح حياة المغتسلة أمام «فاتك» فكل أبناء الطائفة يزرعون بستانهم بأطيب الثمار التى لا يأكلون منها إلا التمر والزيتون والزيت وبعض الفاكهة والباقى يبيعونه فى أسواق القرى التى حولهم.. وكانت لديهم قوانين صارمة تطبق على الجميع فلا يسمح لأحد منهم بتناول أى طعام خارج مستعمرتهم فكل ما تنتجه أرضهم هو «طعام مذكر» وكل ما يتناوله غيرهم «طعام مؤنث» محرم عليهم ولا يجوز لهم تناوله حتى لا تتدنس نفوسهم بعد أن بذلوا جهودا هائلة فى تطهيرها بالتعميد بالماء والاغتسال والصيام والصلاة وأهم من ذلك كله خلو

المستعمرة من جنس النساء.. وكان زعيم الطائفة يحافظ على ترابط أتباعه وتمسكهم بطقوس دينهم بقضاء ساعات طويلة فى الدعاء والصلاة وقراءة سفر الرؤيا المقدس..

خضع «فاتك» لكل تعليمات الجماعة ولكنه لم ينس أبدا أنه ترك زوجته الجميلة وهى تحمل فى رحمها طفلا لا يعرف مصيره.. وهو ما جعل زعيم طائفته يوافقه على العودة إلى منزله لاستجلاء الأمر بشرط واحد.. إذا كان المولود ذكرا فلابد أن يعود به «فاتك» إلى مستعمرة المغتسلة أما إذا كان أنثى فليتركها لأمها وينسى أمرهما تماما..

كانت مريم فى ذلك الحين قد يئست من عودة زوجها إليها بعد أن عرفت أنه رحل إلى مستعمرة المغتسلة.. فوضعت كل آمالها وأحلامها فى تحركات الجنين الذى أخذ فى النمو داخل أحشائها.. كانت تأتيها الرؤى والأحلام بأن ملائكة من السماء يحيطون بها ويرعون جنينها.. وعندما ولدته.. كانت تغيب لحظات وترى الملائكة وهم يحملونه ويصعدون به إلى السماء ثم يعيدونه إليها بعد يوم أو اثنين..

اختارت له اسمه.. وأطلقت عليه «مانى» الذى يعنى بالفارسية الفريد أو النادر فقد كانت تشعر بأنه سيكون مختلفا فأطلقت لخيالها العنان لتنسج من حوله الأساطير والحكايات الخارقة التى استلهمتها من ليالى وحدتها الموحشة..

عندما ولد مانى فى عام ٢١٦ ميلادية كان «أردشير» ملكا على فارس.. واستطاع أن يبسط سلطانه على إيران الشرقية إلى حدود الهند الشمالية الغربية وفرض سلطانه على بلاد بابل وجعل «المدائن» عاصمة الإمبراطورية.. كان التوسع العسكرى للإمبراطورية الفارسية يتبعه انتشار للعقيدة الدينية الفارسية وبرز هذا فى زيادة تقديس الربين مثرا، وأناهيد.

ولم يمنع هذا انتشار الكثير من الطوائف اليهودية والمسيحية فى بلاد بابل ومن ضمنها طائفة المغتسلة التى كان ينتمى إليها «فاتك» الذى بمجرد أن عرف أن زوجته أنجبت «ذكرا» كان همه الوحيد أن يسترده منها ويعود به إلى طائفته لينشأ بينهم على دينه الجديد.

عاد فاتك إلى منزله ليجد «مانى» طفلا صغيرا متعلقا بثوب أمه.. جارا خلفه قدمه اليمنى.. فحمله بين ذراعيه وعاد به إلى مستعمرة المغتسلة.. كبر "مانى" بينهم طفلا

هادئا.. صامتا.. منفذا لكل طقوس الجماعة.. كانت كلماته رغم صغر سنه تحمل الكثير من الحكمة والعقل.. حتى ساقه اليمنى التى كان يجرها خلفه وهو سائر لم تكن تثير شفقة من حوله.. بل تستدعى احترامهم لحركاته البطيئة الهادئة المحسوبة بدقة.. كان يميل إلى الوحدة والتأمل.. وترتسم على ملامح وجهه الصغير أمارات حزن دفين كبرت معه بعد أن عرف ألم فراق أمه حينما انتزعه "فاتك" منها.

أكمل مانى اثنى عشر عاما.. لم يعرف أحدا خلال تلك السنوات إلا أبناء مستعمرة المغتسلة فكان ممنوعا على الجميع مخالطة جيرانهم من القرويين أو التعامل مع النساء حتى فى أثناء بيعهم لمنتجاتهم فى أسواق القرى المحيطة بهم.. فلم يكن يصح فى معتقدهم وهم أتباع «النبى يحيى بن زكريا» أو يوحنا المعمدان المتطهرون.. أن يخالطوا غيرهم ممن يعتبرونهم غارقين فى الكفر والجهل والضلال فلقد كانوا يزعمون أنهم أهل المعرفة من النصارى ولديهم معارف دينية وروحية خاصة لا تتأتى لغيرهم.

ورغم أن ديانة المغتسلة كانت خليطا ما بين اليهودية والمسيحية ووثنية البابليين والفرس إلا أنهم وضعوا لأنفسهم تعاليم خاصة درسها أبناء المستعمرة ومن بينهم الطفل «مانى» فهم يصفون الله بأنه الكائن الأعظم ويلقبونه «بملك النور» أو سيد العظمة الذى خلق العالم عن طريق طاقة من النور ومن أهم مخلوقاته المخلص «ماندا هايى» وكانوا يعتقدون أن الروح عندما تكون فى العالم فهى فى المنفى وأنها شعاع من النور سجينة المادة ولكى تتخلص الروح من سجنها فلابد أن تمارس طقوس الارتقاء التى تحدث عند الوفاة فيتم تطهير الجسد حتى تنطلق منه الروح لتعبر إلى عالم النور.. عرف أتباع هذا المذهب «بالمانديين» وكانت المغتسلة إحدى فرقهم.

عاش مانى كل هذه المعتقدات ومارس كل طقوس الجماعة ليبدأ هو أيضا فى صنع أسطورته الخاصة به.. فى الفترة التى كان يودع فيها آخر أيام طفولته ليدخل فى بداية أطوار الرجولة.. زعم أن الوحى جاءه لأول مرة مرسلا من ملك جنان النور.. «الله» ملك النور.. أرسل إليه «توما» أو التوم أو قرينه كما شرح هو فيما بعد.. جاءه مبشرا له بقرب ظهور دعوته وطالبه بالصبر والهدوء.. وعدم الإعلان عن الرسالة أو الدعوة لأنه لم يزل صغيرا.. قال له «اعتزل هذه الملة فلست من أهلها.. وعليك بالنزاهة وترك

الشهوات، ولم يأن لك أن تظهر لحداثة سنك».

لم يخف «مانى» ولم يجزع لظهور «التوم» فقد كان مهيأ لاستقبال أكثر الأحداث غرابة فعزلته الشديدة بين مجموعة من الرجال الغلاظ الذين يفرضون على أنفسهم طقوسا وتعاليم شديدة الصرامة هيأته للغوص فى مزيد من الأمور الغيبية وإحاطة نفسه بالغموض والأسرار.. صدق «مانى» ادعاءاته.. وأصبح شديد الانعزال عن الجماعة وغرق فى تلك الفترة فى دراسة الطب والسحر والفلك وحركة النجوم وخلط النباتات والأعشاب واستخراج الألوان منها ليكتشف موهبته فى الرسم.. كان يستعد لتنفيذ النبوءة.. حتى حل الموعد فى عام ٢٤٠م.. عاد إليه «التوم» مرة أخرى بعد أن أكمل مانى أربعة وعشرين عاما.

بدأ «التوم» حديثه مع مانى قائلا «عليك السلام يامانى، منى ومن الرب الذى أرسلنى إليك، واختارك لرسالته، وقد أمرك أن تدعو بحقك.. وتبشر بالحق من قبله وتحتمل فى ذلك جهدك قد حان لك أن تخرج فتنادى بأمرك».

واستمر «التوم» فى حديثه فأباح لمانى الحقيقة وسر الكون.. سر النور والظلام والصراع بينهما..

ليحمل مانى الرسالة وليعرف أنه أوحى إليه ليتمم عمل زرادشت وبوذا والمسيح وأنه هو النبى الأعظم الذى بشر به المسيح ليتمم عمله الذى بدأه وأطلق على نفسه لقب «رسول النور» الذى ظهر ليصلح ما أفسده أتباع الأنبياء السابقين.. فكان دينه.. يجمع بين الأديان كلها ماعدا اليهودية وإله العهد القديم فقد كان مانى يبغضها وينكر نبوة «موسى» عليه السلام.

وبدأ مانى فى صياغة دينه الجديد الذى حرص أن يأتى متوافقا مع طبيعة النظام السياسى والثقافى والدينى الذى كان سائدا فى الإمبراطورية الفارسية فى ذلك الوقت فصنع دينا يتوافق مع الجميع.. ويمكن للجميع أيضا أن يعتنقه فكان دينه مزيجا من المثرية نسبة إلى الإله مثرا والبوذية والزرادشتية والصابئة المندابية واليهودية والمسيحية..

قال مانى:

"إن العالم مصنوع من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة بما يعنى أن للكون إلهين أحدهما خير والآخر شرير وأن الاثنين أزليان يشبهان الشخص وظله ولكنهما متضادان. فرب النور يسمى الله ورب الظلام يسمى الشيطان" وهى فكرة تقود إلى الثنوية الإيرانية القديمة التى تعتبر العالم ساحة للصراع ما بين قوتين رئيستين هما «أهرمزد» إله الخير وأهرمان إله الشر فالإله عند مانى ملك جنان النور وهو العظيم الأول وله خمسة أعضاء.. الحلم، والعلم والعقل والغيب والفطنة وخمسة أخرى روحانية وهى الحب والإيمان والوفاء والمروة والحكمة وهو أزلى ومعه شيئان أزليان أحدهما الجو.. وأعضاء الجو خمسة.. الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة وثانيهما أعضاء الأرض.. النسيم والريح والنور والماء والنار.. أما مملكة الظلام وإلهها.. فهو قبيح، ناقص، لئيم، خبيث ونفسه شريرة لئيمة، سفيهة، ضارة، جاهلة.. وأفعاله.. شريرة، فاسدة.. ضارة وأعضائه الحريق والظلمة والسموم والضباب والدخان.

واستمر إله مملكة الظلام مدة طويلة لا يعلم بوجود إله النور ومملكته ولكنه شعر بذلك من حرب حدثت فى مملكته فحاول إله الظلام الاستيلاء على مملكة إله النور الذى تصدى له بجنوده غير أن قائدهم المدعو الإنسان الأول لم ينجح.. وتمكن جنود الظلام من الاستيلاء على جانب من عناصر إله النور ومن النور ذاته الذى امتزج مع المادة الفاسدة فخرج من جنود النور قائد آخر يسمى بالروح الحى الذى حارب كثيرا لكى يحرر مادة النور التى امتزجت بعناصر الظلام إلا أنه لم ينجح فى ذلك.

فأوجد إله الظلام من هذا الخليط آدم وحواء وكل مولود أنجباه كان لديه نفسان إحداهما شهوانية من إله الظلام والثانية خالدة عاقلة لأنها من إله النور الذى خلق الأرض من المادة الرديئة وجعلها مسكنا للبشر ووسيلة للعيش عليها حتى يتم تخليص النفوس من السوء وإفراز الجيد منها.

ثم أخرج إله النور من نفسه كائنين عظيمين هما المسيح والروح القدس لمساعدة النفوس النقية المغطاة بالأجساد فالمسيح من مادة سامية من أنقى نور الله ومسكنها الشمس أما الروح القدس فهى من مادة حيوية وبراقة تنتشر فى الأرض وتشيع فيها الخير والبهجة والسعادة.

وبعد أن أنذر إله النور النفوس المحبوسة فى الأجساد بعد أن أرسل إليهم الملائكة والأنبياء.. أرسل إليهم المسيح ابنه وأنزله من مسكنه فى الشمس إلى الأرض لكى يعظ الناس ويرشدهم إلى الطريق الصحيح ويعيدهم إلى السماء فظهر المسيح بين اليهود وهو على هيئة جسد إنسان وأعلن لهم أنه هو الواسطة الوحيدة لكى تتخلص النفوس من أجسادها.. ولكى يثبت لهم أنه ابن الإله أظهر لهم مقدرته على الإتيان بما لا يقدر عليه البشر.. وحتى لا ينجح المسيح فى مهمته تدخل إله الظلام وأغوى اليهود لكى يصلبوه.. ولأن المسيح لم يكن له جسد كأجساد البشر.. لم يتأثر بآلام الصلب وعاد إلى مسكنه فى الشمس وظن اليهود أنهم صلبوه.. ولكنهم لم ينجحوا فى القضاء على تعاليمه بعد أن ترك بينهم تلاميذ له يعلمون الناس ما جاء به لإنقاذ أرواحهم ووعدهم بأنه سيبعث لهم رسولا أعظم منه سيرشدهم إلى أسرار وحقائق لا يعلمون عنها شيئا يسمى «الغارقليط».. الذى ادعى مانى أنه هو الذى بشر به المسيح لاستكمال دعوته واتباع شريعته التى يجب أن تنبذ إله اليهود لأنه هو نفسه إله الظلام وأن لا تتبع تعاليم «موسى» عليه السلام لأنه مرسل من لدى إله الظلام.. وأن يتبع الجميع تعاليم مانى حتى تتحرر النفوس وتعود إلى عالم النور أما النفوس الشريرة التى لم يتم تطهيرها فتسكن بعد الموت أجساد البهائم والحيوانات وعندما يتم الانتهاء من تقسيم النفوس يأمر إله النور.. النار بأن تخرج من مقرها لكى يحترق العالم ويتلاشى وينتهى.

بعد أن انتهى «التوم» من توضيح الرسالة «لمانى» أمره بالخروج للدعوة فكان والده واثنان من أصدقائه أول من آمن به.. وقرروا اتباعه والرحيل معه لنشر الدعوة..

خلع مانى قبل أن يرحل الملابس البيضاء التى كان مفروضا على طائفة المغتسلة ارتداؤها.. ولبس بدلا منها ملابس اختارها ملونة تشبه كثيرا أزياء أبناء طبقة المحاربين التى كان ينتمى إليها والده.. سار بين مدن بابل كان يختار شجرة وارفة الظل فيجلس تحتها ليخرج ألوانه ورسومه فينجذب إليه الفضوليون.. ليبشرهم ويحدثهم عن دعوته.. وفى كل مرة كان يترك فيها شجرة كان يجد أخرى.. فيجتمع حوله كثيرون تسحرهم كلماته ودعوته الأسطورية وحكاياته عن عالم الغيب وصراع الآلهة وعودته هى «الغارقليط»..

فى نفس الوقت كان الملك أردشير يسعى لتوسيع مملكته فقام بترسيم ابنه الأخير شابور مشاركا له فى الحكم.. وكان الأمير شابور قائدا عسكريا لا يشق له غبار.. كان معروفا بشجاعته وإقدامه وطموحه الذى لا يقف عند حد.. وتزامن خروج مانى لنشر دعوته عام ٢٤٠م بمشاركة الأمير شابور لوالده على العرش وانطلاقه لافتتاح البلدان التى كان بعضها يقع تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية التى كانت تهتز بتغير الأباطرة وصراعهم فاستولى شابور على الرها وسوريا وانطاكية وطمح إلى بسط نفوذه على أقاليم آسيا الصغرى.

وكان مانى يسعى لنفس هدف شابور.. الذى كان يحلم بفرض سيطرته على العالم فى حين كان مانى قد بدأ طريقه لنشر دعوته فتنقل بين مدن بلاد الرافدين.. حاملا معه أدوات الرسم ومعارفه فى الطب والعلاج بالأعشاب والنباتات وحركة النجوم والأفلاك ومزاعمه عن صراع الآلهة فى السموات وفى كل مكان وصل إليه تجمع حوله المستمعون الذين سحرهم بحلاوة كلماته وعذب حديثه وهدوئه وحلمه وصبره على من يعارضه.. وكانت مهارته فى شفاء المرضى مستخدما تركيبات من النباتات والأعشاب قد فتحت الطريق أمامه ليجتذب إليه كثيرين كانوا يستمعون إليه ويؤمنون بدعوته بعد أن سحرهم ببساطته وزهده.. وكلما زاد عدد من آمنوا به واتبعوه زادت المخاطر التى بدأت تحاصره وتعرف طريقها إليه بعد أن حاصرته عيون رجال «أردشير» «الساسانى» ملك الملوك وسليل الآلهة المحاط بجيش من الكهنة يسعون إلى فرض عبادة النار على امتداد رقعة الإمبراطورية فلم يجد «مانى» أمامه سوى الرحيل والتحرك من مكان إلى آخر حاملا دعوته ومعارفه الطبية التى اكتسبها أثناء إقامته بين طائفة المغتسلة على ضفاف نهر دجلة مجتذبا إليه المسيحيين وأتباع بوذا وزرادشت مبتعدا عن اليهود.. معلنا أن «الله وهو نور خالص.. لم يكن يعرف جيدا عالم الظلمات عندما دعا أول إنسان ليقول له: أنت يامن يتجاور فيه النور والظلام.. إنك خير سند لى.. أجل أيها الإنسان.. إنك الشرك الذى ينصبه النور للظلمات وإليك أعهد بمهمة السلطان على الخليقة والمحافظة عليها».

ابتعد مانى عن بلاد الرافدين.. قاصدا الهند.. قائلا.. سأعلم دين الجمال للأمم

فى أربعة أقطار الدنيا.. توافق وصول مانى إلى الهند فى مدينة تجتمع فيها كل مظاهر الأديان التى سبقته وعلى حدودها كان يقف «هرمز» حفيد أردشير ملك الملوك وسليل الآلهة مستعدا لاكتساح الهند والاستيلاء عليها.. وبدأ مانى يلقى مواعظه فى المدينة التى سبقه إليها تلاميذ المسيح.. وذاع صيته.. وقدرته على العلاج بواسطة «الكلمات والنباتات» فكما كان بارعا فى استخدام تركيبات الأعشاب والنباتات كانت له قدرة على استخدام التمائم والعبارات السحرية.. التى درسها فى الكتب القديمة.. وعلم «مانى» أن معسكر هرمز حفيد أردشير يقع على أطراف المدينة فانطلق عازما لقاء حفيد الملك.. الذى سمح بلقائه.. خاصة بعد أن كان قد وصل إليه أنه يبشر بدين جديد.. تجتمع فيه كل الأديان والأنبياء.. كان هرمز يبحث عن التسلية وسماع الجديد.. مانى قد سعى للقائه رغبة فى الاستقواء به واكتسابه إلى جانبه.. لتزداد حريته فى الدعوة والتحرك فى البلدان التى تسيطر عليها العائلة المالكة.. وجاءت زيارة مانى فى الوقت المناسب فابنة الأمير كانت قد تعرضت لحادث أفقدها الوعى.. ووجدها الأمير فرصة ليرى بنفسه موهبة مانى فى الطب التى اشتهر بها.. فصحبه إليها.. وبسرعة أخرج النبى المزعوم والطبيب الماهر زهورا مجففة وأعشابا وأوراق شجر.. انشغل بسحقها وخلطها بالعقاقير والزيوت ليصنع منها عجينة.. غطى بها رأس وجسد الطفلة الصغيرة.. وظل بجانبها طوال الليل.. يغير ويبدل فى العجائن التى يضعها على جبهتها.. وهو يتمتم بكلمات وتعاويذ بصوت هامس وبعد عدة ساعات من العمل المتواصل الذى راقبه فيه الأمير بصمت ورهبة تحركت جفون الطفلة الصغيرة.. لتسهم تلك الحركة فى صنع مستقبل مانى سنوات طويلة.

شعر «هرمز» بولاء شديد ناحية «مانى» الذى رفض كل ما عرضه عليه الأمير من الذهب والأموال.. مما جعل مكانته لديه تزداد.. وتوارت كل الهواجس والتحذيرات التى حاول «الموبذان» «كردير» كبير الكهنة زرعها فى قلب الأمير ضد «مانى» الذى حظى بثقة الأمير بصفته رجلا مقدسا يأتيه وحى من السماء..

غادر مانى معسكر الأمير بعد أن حقق نجاحا ساحقا وحصل على وعد من الأمير بلقاء والده «شابور».. واطمأن قلبه على دعوته التى خرج من أجلها.. وعاد مانى إلى

اجتماعاته.. فكان يختار ظل شجرة ورافة.. ليتجمع حولها من يرغب فى سماعه وهو يتحدث عن دينه الجديد الذى قال عنه «إن الذى ارتفع فى الغرب لم يزهر أمله قط فى الشرق، والذى ارتفع فى الشرق لم يبلغ صوته الغرب..

وفى أحد الأيام استدعى الأمير هرمز مانى على عجل.. فذهب إليه ليجد مظاهر الألم والحداد تملأ معسكر الأمير بعد أن وصل إليه أن جده «أردشير» ملك الملوك وسليل الآلهة قد مات.. وأن الأمير يرغب فى مرافقة مانى له فى طريق عودته إلى المدائن لحضور ذلك الحدث الجلل.

لم ترق صحبة مانى الأمير «هرمز» لكثير من أمراء العائلة وحاشيته وكهنته وعمل «الموبذان» المسئول عن النيران المقدسة على محاولة إقصاء «مانى» بعيدا عن الأمير.. فلجأ إلى الأمير فيروز شقيق والده شابور محاولا استمالته إليه واكتسابه إلى جانبه للتخلص من مانى.. وكان فيروز يمتلك بساتين وحدائق تخترقها الأنهار وتمتلئ بكل أنواع الزروع والثمار.. وعندما أرسل فى طلب مانى كان يجلس بين حاشيته فقال لمانى «أفى الجنة التى تتحدث عنها حديقة كحديقتى هذه؟».. فأدرك مانى أن الأمير يسخر منه ويهزأ من دعوته.. ويزعم أتباع «مانى» أن نبيهم تقدم منه ليريه واحدة من معجزاته فنظر إليه ففقد الأمير النطق وغاب عن الوعى ثلاث ساعات كاملة شاهد فيها جنة النور والملائكة والحدائق الغناء التى تتلألأ فى جنباتها الأنوار الإلهية.. فشل أتباع الأمير فيروز فى إفاقته.. وعندها اقترب منه «مانى» ووضع يده على رأسه.. ليهب الأمير واقفا.. ممسكا بيدى مانى.. ساجدا أمامه.. بعد أن جعله مانى يشاهد الجنة التى كان يسخر منها..

قد تبدو القصة خرافية أو أنها من صنع أتباع المانية لإضافة هالة من القداسة ونسب المعجزات لمانى إلا أنها فى نفس الوقت قد يكون لها ظل من الحقيقة إذا وضعنا احتمال أن مانى كان يمتلك معارف فى السحر والتنويم المغناطيسى وأنه قد استطاع التأثير على الأمير بتلك الخدعة.

ومع ذلك سواء كان ما قام به مانى خدعة وأن القصة من تأليف أتباعه فمن المؤكد أنه استطاع أن يقترب من العائلة المالكة ليحصل على رعايتها خاصة بعد لقائه الشهير

بالملك شابور الذى أصبح الملك المتوج بعد موت «أردشير».. والذى شعر بفضول شديد للقاء مانى بعد أن تحدث عنه المعجبون به والكارهون له بالكثير.. فقرر شابور أن يلقاه بنفسه ليحسم أمره.. والذى كان مقررا سلفا بأنه سينتهى بالأمر بقتله والتخلص منه.

وهنا يعود أتباع مانى لإضفاء هالة من القدسية على ذلك اللقاء فقالوا إنه عندما دخل مانى على شابور كان على كتفيه مثل أعمدة من النور عندما رآها شابور أكبره وأدرك أنه أمام معجزة حقيقية.. ومن المؤكد أن «شابور» الذى كان يحمل لقب سليل الآلهة والمسئول عن السماح بإطلاق النيران المقدسة فى المعابد.. قد التقى «مانى».. ودار بينهما حوار استمع فيه إلى ديانته ودعوته التى أوجزها «مانى» بكونه ينتمى إلى جميع الأديان وأنه يدعو الناس إلى أن يأخذوا من كل عقيدة المادة المنيرة ويزيحوا القشور عن الباقى.. وأن من يتبع سبيله فيمكن أن يبتهل إلى «أهوار مازدا» وإلى «مثرا» وإلى المسيح وإلى بوذا وليذهب كل إنسان بصلواته إلى المعابد المانية.. وفى نفس المجلس الذى شهد لقاء مانى بشابور.. حاول الموبذان «كردير» كبير الكهنة أن يحذر من خطورة دعوة «مانى» وأسماه الناصرى نسبة إلى المسيح عليه السلام.. وأن أقواله تتعارض مع تعاليم زرادشت.. ولم تجد معارضة كبير الكهنة آذانا صاغية لدى الملك الذى كان قد مال بالفعل إلى «مانى» وما سمعه عنه من قدرات طبية وسحرية.. وعندما قارب اللقاء نهايته كان الملك قد أدرك أن ديانة مانى لا تهدد ملكه.. فأصدر أوامره بأن يسمح لمانى بنشر دعوته بكل حرية فى جميع مدن الإمبراطورية وأن يعتبره ولاة وأمراء البلاد والمقاطعات أنه رسوله ومبعوثه الخاص.

كان قرار الملك شابور نقطة تحول فى حياة مانى.. فلقد حصل على الدعم الإمبراطورى وتفرغ بعدها للدعوة والتحرك بحرية ووضع أسس وشريعة عقيدته وانتشرت ديانته فى سوريا وفلسطين وجزء من الجزيرة العربية ووصلت إلى مصر وطرابلس.. وكتب مانى «الشابورقان» ويبدو واضحا من اسمه أن المقطع الأول من اسم الكتاب حمل اسم شابور تمجيدا له واعترافا بفضله واستدرارا لعطفه وتأكيدا على أن عقيدته التى احتوت على نشأة الكون وقصة الخلق وقصص الرسل الذين سبقوه ومنهم بوذا وزرادشت ويسوع ووضع مانى نظاما لجماعته تدرج فى خمس طبقات مثلت

وتشابهت مع المساكن الخمسة لإله النور فى السماء فوضع فى الطبقة الأولى اثنى عشر من المعلمين وأسماهم «أصحاب الحلم» وكان هؤلاء بمثابة المشرعين والمطلعين على الأسرار وتكونت الطبقة الثانية من اثنين وسبعين من أبناء العلم أو الأساقفة والطبقة الثالثة من ثلاثمائة وستين من القسيسين أبناء العقل.

ووضع للطبقة الرابعة والتى أسماها «الصدقيين» نظاما خاصا بهم.. فقد كانوا هم صفوة الأتباع الذين وصلوا إلى درجة التشبع من العقيدة وعرفوا طريق النور والإيمان ووضع لهم نظاما دقيقا لم يكن مسموحا لهم بالخروج عليه.. فألزمهم «باتباع الخواتيم السبعة» والتى كانت تعنى تعاليم يلتزم بها المؤمن فى العقيدة والأخلاق.. فكان خاتم الفم الذى يعنى «الكف عن الكلام المؤدى إلى الكفر أو الخبث» وخاتم اليد ويعنى «الابتعاد عن كل فعل أو تصرف يغضب إله النور «وخاتم القلب ويعنى» «تجنب الاستسلام للشهوات الجنسية المحرمة» وحرم عليهم أكل الحيوانات وطبخ الخضراوات حتى لا تغضب ذرات النور بداخلها، وكذلك حرم عليهم شرب الخمر.. وأن يعيشوا بلا زواج وأن يطوفوا بلاد العالم يبشرون بالمانية وينصحون الناس بالاستقامة.. وعليهم ألا يملكوا سوى طعام يكفى ليوم واحد فقط وملابس تكفيهم لمدة عام واحد.. وكان عليهم أن يلتزموا بتلك التعاليم بدقة ولا يسمح لهم بالخروج عليها بعكس الطبقة الخامسة والأخيرة لدى مانى والتى أطلق عليهم «السماعون».. وهم العوام والبسطاء من أتباع المانية وكان على هؤلاء أن يعيشوا حياتهم بصورة أقرب إلى الطبيعة فهم يعملون ويمارسون مختلف المهن.. وأباح لهم أن يأكلوا لحوم الحيوانات بشرط أن يذبحوها بأيديهم.. وسمح لهم بالزواج بشرطة أن يعيشوا حياة مستقيمة وحرم عليهم ممارسة الجنس يوم الأحد المقدس لدى السماعين.. ولأنه سمح لهم بالتمتع ببعض شهوات الدنيا بشرط أن يبتعدوا عن القتل وممارسة السحر فكان عليهم أن يقدموا كثيراً من الاحترام والواجبات إلى أبناء طبقة الصدقيين ففرض عليهم أن يوفروا الغذاء للصدقيين ويقدموا الهدايا لهم وأن يتولوا هم طبخ الخضراوات التى يتغذى منها هؤلاء وأن يقدموها إليهم وهم راكعون.. ليتولى بعد ذلك الصدقيون أداء الصلوات التى ترفع الخطايا وتكفر عن أخطاء السماعين من وزر طبخ الخضراوات والنباتات.

وفرض على المؤمنين جميعا أداء الزكاة وإخراجها للمحتاجين ولكن بشروط فإذا كان الفقراء لا يتبعون الديانة المانوية فكانوا يعطونهم الملابس والنقود لأنها من الأشياء التى لا نور فيها ويحرم أن يعطوهم الماء والخبز والخضراوات والفاكهة لأنها مليئة بذرات النور فإذا أخذها الكفار فذلك يعد اعتداء على ذرات النور.. وفرض عليهم الصلاة أربع مرات فى اليوم على أن يتطهروا قبلها بالماء الجارى أو فى حالة الضرورة «بالرمل» أو بما يماثله..

وكانت الصلاة الأولى عند زوال الشمس والثانية بين الزوال وغروب الشمس والثالثة بعد غروب الشمس والرابعة صلاة العتمة بعد غروب الشمس بثلاث ساعات وفى كل صلاة كانوا يسجدون اثنتى عشرة مرة.

وكان المانى يسجد ويقول فى سجوده.. «مبارك هادينا» «الغارقليط» رسول النور.. ومبارك ملائكته الحفظة، ومسبح جنوده «النيرون».. يقول هذا ثم يسجد ويقوم ولا يلبث فى سجوده ويكون منتصبا ثم يقول فى السجدة الثانية «مسبح أنت أيها النيّر مانى هادينا، أصل الضياء، وغصن الحياة، الشجرة العظيمة التى هى شفاء كلها» وفى السجدة الثالثة.. «أسجد وأسبح بقلب طاهر، ولسان صادق للإله العظيم، أبى الأنوار وعنصرهم، مسبح مبارك أنت وعظمتك كلها وعالموك المباركون الذين دعوتهم، يسبحكم مسبح جنودك وأبرارك وكلمتك وعظمتك ورضوانك، من أجل أنك أنت الإله الذى كله حق وحياة وبر» وفى السجدة الرابعة.. «أسبح وأسجد للآلهة كلهم، وللملائكة المضيئين كلهم وللأنوار كلهم وللجنود كلهم الذين كانوا من الإله العظيم».. ثم يقول فى السجدة الخامسة.. أسجد وأسبح للجنود البكراء، وللآلهة النيرين، الذين بحكمتهم طعنوا وأخرجوا الظلمة وقمعوها.. ويقول فى السادسة.. أسجد وأسبح لأبى العظمة العظيم المنير، الذى جاء من العلمين.. وتستمر الأدعية والابتهالات فى باقى السجدات حتى السجدة الثانية عشرة.

ووضع لهم قواعد الصيام فكانوا يصومون سبعة أيام فى الشهر.. وجعل يوم الأحد معظما «للسماعين» ويوم الاثنين معظما لدى الصدقيين. ويضاف إلى هذا شهر كامل من الصيام قبل الوليمة المقدسة.. وكانوا يصومون اليوم كله ويفطرون بعد غروب

الشمس؟!

ويبدو واضحا من طبقات المؤمنين التى وضعها مانى أن همه الأول كان يكمن فى فكره اجتذاب الأتباع فى المقام الأول.. ولذلك تساهل مع الجميع فمن كان يقدر على اتباع تعاليمه بالكامل وضعه فى مرتبة أعلى ممن لم يقدر على تنفيذها بشكل كامل فالمهم أن يتبعوه هو فى المقام الأول وجعل شريعته وأوامره غير ملزمة للجميع ولذلك جاءت تتسع للجميع واختياراته فى المقام الأول ولذلك قال «ينبغى للذى يريد الدخول فى الدين أن يمتحن نفسه، فإن رآها تقدر على قمع الشهوة والحرص وترك أكل اللحمان وشرب الخمر والتناكح وترك أذية الماء والنار والسحر والرياء فليدخل فى الدين، وإن لم يقدر على قمع الشهوة والحرص.. فليغتنم حفظ الدين، و«الصدقيين» وليكن له بإزاء أفعاله القبيحة أوقات يتجر فيها للعمل والبر والتهجد والمسألة والتضرع فإن ذلك يقنعه فى عاجله وآجله ويكون صورته.. الصورة الثانية فى المعاد».

وكتب مانى ثانى أهم كتبه باللغة السريانية وأسماه «الإنجيل الحى» أو «الإنجيل العظيم» أو «أرتن» وقسم كتابه إلى اثنين وعشرين سفرا.. وأعلن فى هذا الكتاب أنه هو «الفارقليط» الذى بشر به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وأنه هو مانى خاتم الأنبياء وأودع مانى فى هذا الإنجيل عقيدته بعد أن رفض معظم ما جاء فى التوراة أو العهد القديم الذى كان يعتبره من إنشاء إله الظلام الذى يعبده اليهود ورفض ما جاء فى العهد الجديد أو الأناجيل التى كانت موجودة فى عصره بعد أن ادعى أن تلاميذ المسيح قد حرفوها وغيروها فأراد «بإنجيله» أن يكون بديلا عن الأناجيل المسيحية المعترف بها وحتى يكون لدى المسيحيين كتاب واحد يحمل التعاليم المانية.. ولم يتوقف مانى عن كتابة الرسائل التى كان يرسلها لأتباعه ودعاته فى معظم البلدان حتى أن هناك الكثير من الرسائل تم اكتشافها فى مصر ومكتوبة باللغة القبطية وتحمل تعاليم مانى.. وكان أتباع مانى فى مصر يطلق عليهم لقب «حواريى يسوع».

وكان الأسقف المانى «أدا» أول مبشر رفيع المستوى يصل إلى مصر حاملا معه الكتب والرسومات التى تحمل العقيدة المانية وعندما استطاع أن يحقق نجاحا ملحوظا لحق به بعد ذلك «توما» الذى عاش فى مصر لفترة ومن مصر انتشرت المانوية إلى

أفريقيا وأسبانيا.

وهو ما جعل بطاركة الإسكندرية الأرثوذوكسيين يتصدون لمحاربة بدعة مانى وادعاءاته بكل قوة.. وكان البابا مكسيموس البطريرك الخامس عشر أكثر من قاوم المانية وكتب الرسائل من أجل فضحها وتوضيح كذب ادعاءات مانى وألقى الخطب والمواعظ لشرح تعاليمها الفاسدة التى كانت تهدف إلى هدم العقيدة المسيحية الأرثوذوكسية.

وهو نفس الأمر الذى دعا بعد ذلك بفترة طويلة وحتى بعد وفاة مانى الإمبراطور الرومانى «ديفلشيان» عام ٢٩٧م لإصدار مرسوم شهير ضد المانية بعدما ازداد عدد المبشرين بها داخل حدود إمبراطوريته وجاء فى المرسوم.. «إن الإمبراطور أصبح مدركا أن المانويين قد اقتحموا فى الآونة الأخيرة الأراضى الرومانية كالوباء الشديد المفاجئ وجاءوا من بين الفرس الأعداء.. واقترفوا العديد من الجرائم وكانوا يستفزون الجماعات المسالمة، وهناك مسوغ للخوف منهم لأنهم بسبب عاداتهم الهمجية وتقاليدهم الفارسية المسعورة كانوا من الممكن أن يلوثوا الناس ذوى الطبيعة الساذجة ويزودوهم بالسم المهلك ويعنى هذا تسميم الأناس الرومانيين الهادئين والعالم بأسره فعليا.. مما استدعى اتخاذ إجراءات من أشد الأنواع صرامة.. وجوب إحراق الرسائل مع مؤلفيها وزعماء الفتنة وأن يجرى قتل أتباعهم ومصادرة ممتلكاتهم.. أما بالنسبة لجميع الأشخاص ذوى المناصب العالية فى المجتمع والذين التزموا جانب هذه الطائفة الشائنة أو استسلموا للعقيدة الفارسية.. فقد حكم عليهم بالعمل الإجبارى فى المناجم وأن تصادر ممتلكاتهم».

ورغم كل الجهود التى بذلت من رجال الدين المسيحى ومن الحكام إلا أنه لم ينجح أحد فى ذلك الوقت فى القضاء على تعاليم مانى ولا على دعوته التى كان يزداد عدد المؤمنين بها كل يوم حتى أنه نسب إليهم التحريض على نشوب ثورة فى مصر ضد سلطة الإمبراطور الرومانى بعد انتشار الفقر وتدهور الأحوال الاقتصادية وهو ما يعكس وبوضوح وجود عدد كبير ممن يعتنق المانية فى تلك الفترة خاصة بعدما نشر الأساقفة المانيون أدا، توما، هيميا.. الإنجيل العظيم الذى ألفه مانى وجمع فيه كل

الأناجيل المسيحية بعدما صاغها بأسلوبه الخاص وأضفى عليها صبغة ديانته. وكان الموبذان «كرديـر» يضمـر عداء سافرا وكراهيـة شديدة «لمانى» وإن كان عاجزا عن مقاومته بشكل واضح للحماية التى أسبغها شابور عليه.. مما جعل النيل منه أمرا غاية فى الصعوبة وإن لم يخل الأمر من محاولات متفرقة للتحرش به وبأتباعه.. مما جعل مانى يشعر بكثير من الاطمئنان والأمان الذى دفعه إلى كتابة الكثير من المؤلفات والرسائل فألف «كنز الأحياء» وكان له طابع فلسفى وكتاب «سفر الأسفار» وحوى هجوما ضاريا على «ابن ديصان» وأتباعه.. ونسبت الديصانية إلى ابن ديصان الذى قيل إنه حمل هذا الاسم لأنه ولد على نهر بنفس الاسم.. وهى فرقة سبقت مانى وبينهما كثير من الاتفاق.. فابن ديصان قال إن للعالم أصلين أو إلهين.. النور خير والظلام شرير وانقسمت الديصانية إلى فرقتين.. فرقة قالت إن النور خالط الظلام حتى يصلحه وعندما اقتربا وامتزجا.. لم يستطع النور طرد الظلام.. والفرقة الثانية قالت إن الظلام زحف على النور وحينما حاول النور دفعه عنه ازداد ارتباطا به..

وكتب مانى أيضا «سفر الجبابرة»، وسفر الأحياء، كتاب فرقماطيا، كفالايا واحتوى الكتاب الأخير على عقائد مانى وشروحه وإلهاماته.

وتصاعدت الأحداث السياسية التى أرغمت مانى على ترك مؤلفاته ورسائله والذهاب إلى قصر «شابور» بعد أن أرسل ليستدعيه من أجل مشاورته فى تجهيز الجيش لخوض حرب بعد مقتل القيصر «فيليب» الذى كان قد وقع معاهدة مع الملك شابور تقضى بدفع جزية من الذهب للملك الساسانى مقابل إقرار السلام وعدم استيلاء شابور على أرمينيا.. وكان «مانى» رافضا لفكرة الحرب.. وسفك الدماء فطلب من «شابور» أن ينتظر ليرى ماذا سيفعل خليفة القيصر.. واستمع الملك لرأيه الذى ثبتت صحته بعد أن أرسل الإمبراطور «دسيوس» الذى نجح فى الاستيلاء على الحكم إلى شابور مؤكدا له أنه ملتزم ببنود الاتفاقية التى وقعها مع الإمبراطور فيليب.. وجاءت رسالة «دسيوس» لتؤكد «لشابور» حكمة مانى وبعد نظره وفهمه الصحيح للأمور.. وكان رجال الحاشية وكبير كهنة معابد النار يراقبون تلك التطورات بضيق لشعورهم بمدى تأثير مانى على ملك الملوك الذى أثناه عن الانطلاق فى حملة عسكرية كان قادة

الجيش فى شوق عظيم لها من أجل الأسلاب والغنائم.

ولم يهنأ «مانى» طويلا بنصيحته الأخيرة.. فذهب الجزية لم يصل فى موعده مما جعل حركة الاستعداد للحرب تنشط مجددا فى البلاط الفارسى.. وهو ما دفع شابور لاستدعاء «مانى» من جديد طالبا منه أن يرافقه فى حملته الحربية.. فما كان من مانى إلا أن رفض قائلا «لن تسفك أقوالى الدم ولن تبارك يدى أى سيف، ولا حتى سكاكين المضحين ولا فأس حطاب».

غادر شابور على رأس حملته العسكرية من حوله رجال حاشيته وكهنته الذين لم يألوا جهدا فى تأليبه على مانى الذى تجرأ ورفض مرافقة الإمبراطور بعد أن وفر له الحماية والأمان سنوات طويلة وسمح له بالتجول فى البلدان والاقطاعيات ناشرا دعوته منكبا على كتبه ورسوماته ورسائله.. وعاد شابور بعد غياب طويل منتصرا فاتحا مستعرضا الأسرى من الرومان بعد أن استطاع أن يستولى على سبع وثلاثين مدينة من الرومان.. لم يرسل شابور فى استدعاء «مانى» الذى ظل بعيدا عن القصر عقابا له على عدم مرافقة شابور فى رحلته العسكرية وإن كان محتفظا بحمايته التى وعده بها الملك..

وسقط «مانى» مريضا.. وعرف شابور.. فأرسل إليه أطباءه.. وأدرك «مانى» أن زيارة طبيب الملك له هى دليل على رضائه عنه.. فاغتنم الفرصة على الفور وأرسل له قائلا إن مجرد سؤاله عنه قد شفاه وإن كل ما يرغب فيه هو مقابلته والسجود أمامه..

وعاد مانى إلى قاعة عرش ملك الملوك وسليل الآلهة.. الذى طلب منه أن يرافقه كطبيبه الخاص فى الحملة التى نوى القيام بها للحفاظ على فتوحاته التى عاد الرومان محاولين الاستيلاء على ما كسبه.. وخرج مانى مرافقا «لشابور».. الذى كان من عاداته استشارة كهنته قبل اتخاذ قرار الهجوم بعد دراسة أحوال الفلك وحركة النجوم وتوافقها مع ما يراه الملك.. وعندما جاء الدور على مانى لسؤاله.. طلب منه شابور أن يسأل «التوم» عن إقدامه على الهجوم.. فغاب مانى.. وعندما عاد إليه كان جوابه انتصارا ساحقا لأعدائه فقد أخبر شابور أن «التوم» رفض حتى الاستماع إلى سؤاله..

وانتصر شابور مرة أخرى.. وهزم «مانى» هزيمة ساحقة.. بعد أن خذل مليكه الذى

حما دعوته سنوات طويلة وكاد يتسبب فى هزيمته.. وابتعد مانى تماما عن شابور وعاد لسياحته فى أرجاء الإمبراطورية وكان كثيرا ما يلجأ إلى «هرمز» الذى كان والده شابور قد عينه حاكما على أرمينيا.. وبدأ أتباع مانى فى تلك الفترة يعانون من الاضطهاد.. فبدأ كبار رجال الدين يطلقون حملات عدائية ضد أتباع مانى وخاصة «الصدقيين» فكان يقبض عليهم ويقدمون إلى المحاكمات وتحرق منازلهم ويطردون من قراهم.. وكان مانى يتدخل عندما يعلم بالأمر بما تبقى له من نفوذ لدى القصر ليبعث رسائل إلى الملك ليذكره بعهد الحماية فيأمر بوقف مطارداتهم.

ومات «شابور» وعهد بالحكم إلى ابنه الصغير «هرمز» متخطيا بذلك بهرام ابنه الأكبر.. ويتولى «هرمز» الحكم عادت إلى مانى الحماية والرعاية وشعر بالأمان ومعه أتباعه حتى أنه بنى كثيرا من «الكنائس» الخاصة بديانته التى شهدت إقبالا هائلا لاعتناقها من ضباط الجيش والنبلاء حتى أن بعض الكهنة ممن كانوا على خلاف مع الموبذان «كردير» انضموا إلى ديانة مانى.. مما خلق وضعا سياسيا دينيا شديد التعقيد بعد أن أصبح جانب من أتباع «مانى» من يمثلون جبهة المعارضة للسلطة الدينية الرسمية.. التى كانت فى النهاية خاضعة لسلطة الملك «هرمز» والذى كان يعتبر «مانى» بمثابة «المعلم» وبدأت الرسومات التى كانت تصور طقوس الديانة المانوية تنتشر بشكل كبير وظهرت رسومات تصور «مانى» تحيط برأسه الشمس كهالة من النور مرتديا رداء من الحرير مزينا برسومات رائعة الجمال وعلى رأسه تاج.. ورسومات أخرى تظهر «السماعين» وهم يحصلون على الغفران من الصدقيين.. كانت تلك الفترة لدى المانوية.. فترة الرخاء الحقيقى التى ازدهرت فيها فنونهم الراقية والتى ارتبطت بحالة الهدوء والأمن التى سادت طوال فترة حكم «هرمز».

وفى عام ٢٧٣م كان عمر مانى سبعة وخمسين عاما.. نشر فيها دعوته وأرسل الدعاة إلى معظم بلدان الأرض.. عاش بين أتباعه مدعيا أنه الغارقليط الذى بشر به المسيح عليه السلام كخليفة له ومتمما لرسالته على الأرض.. اقترب من أقوى ملوك الأرض وحصل على حمايته.. قرأ وكتب ورسم.. وشرع وتحدى سلطة الكهنة وآباء الكنيسة الأرثوذوكسية.. وجاء الوقت لتنتهى فيه أسطورة النبى المزعوم.. الذى برع فى

تجميع أديان من سبقوه جميعا ونسج من آثار من سبقوه دينا خاصا به.

مات «هرمز» الذى لم يكن يتورع عن تقبيل يدى «مانى».. قيل إنه قتل وأن الكهنة لم يكونوا راغبين فى حكمه.. فتخلصوا منه ليأتى من بعده شقيقه «بهرام» الذى كان يقع تحت سيطرة رجال الدين ويتلاقى معهم فى كراهية مانى..

لم يستغرق مانى فترة طويلة ليدرك أن موت «هرمز» يعنى النهاية له.. فجمع كبار دعاته من المعلمين وأبناء العلم والقسيسين والصدقيين وقال لهم «إن المحنة الكبرى سوف تبدأ، ورغبتى هى ألا يصحبنى أى منكم على هذا القسم المضنى من الطريق الذى لا يزال ينبغى أن يقطعه جسدى».. فقد كان يعلم أنه بمجرد وصول «بهرام» الشقيق الأكبر إلى الحكم سوف يتم التنكيل به، فبهرام كان خاضعا لنفوذ الموبذان «كردير» كبير الكهنة وشديد الكراهية «لمانى» ولطائفته التى حاول مانى توفير بعض الأمان لها فأمر من استطاع من أتباعه بترك «المدائن» والعودة إلى بلدانهم الأصلية.

وتحقق حدس «مانى» الذى لم يكن فى حاجة إلى ظهور «التوم» ليتخذ الإجراءات السابقة فهو قد تمرس على مؤامرات القصور ودسائسها.. فما كاد الملك «بهرام» يفرغ من تتويجه وتنظيم أمور حكمه حتى أصدر قراره الملكى..

«يطرد مانى ابن باتيغ من عرق البارتين وطبقة المحاربين، الطبيب حاليا.. ابتداء من هذا التاريخ من أراضى ما بين النهرين وأرمينيا وبرسيديا لنشره آراء مخالفة للدين الصحيح».

نفذ «مانى» الأمر الملكى وانطلق فى طريقه قاصدا الهند.. يتبعه أخلص أتباعه وهو تحدوه رغبة هائلة فى الوصول إليها والاستقرار بها ونشر دعوته.. وما إن قطع جزءا من طريق السفر حتى وقعت حادثة هامة كانت مؤشرا على نهاية مانى.. والحادثة لها روايتان.. رواية تقول إن بعد صدور قرار الملك بطرد مانى لم يرض الموبذان «كردير» عن الطرد فقط بل كانت لديه رغبة فى القبض على مانى ومحاكمته وقتله للتخلص منه وعندما استطاع إقناع الملك برأيه كان مانى قد رحل فأرسل خلفه إلى والى مدينة «أبرشهر» ليأمره بالعودة.. وتبدو هذه الرواية منطقية بالقياس إلى الرواية التى ابتدعها مانى ورددها أتباعه من بعده لإضفاء هالة من القدسية عليه.. وتقول الرواية إنه أثناء

سيره فى طريق القوافل جلس ليستريح عند مجرى ماء.. واستغرق فى التأمل حتى ظهر له «التوم» وقال له «أنت تجرى وتجرى فهل تفكر فى الإفلات من إعيائك»..

فرد مانى «إنى متلهف على اكتشاف جميع تلك الأمم التى لم أحمل إليها رسالتى بعد» فقال التوم «كلا يامانى لقد فات الأوان وقد ضاع منك طريقك وعليك أن ترجع» «سوف تجتاز المدن التى اسمك فيها أكثر الأسماء تبجيلا.. وسوف يهرع الناس فى كل مكان للقائك، وهناك آلاف الرجال والنساء يرغبون فى الانضمام إلى ركبك ولكنك ستقول لهم وحسب.. تأملونى، أشبعوا نفوسكم من صورتى، لأنكم لن ترونى أبدا على هذا الشكل».

قبض على مانى واقتيد ليمثل أمام الملك بهرام والموبذان «كردير» وحوكم على عصيان الأمر وعلى خيانته والتخلى عن الدين الصحيح ونشر آراء وأفكار تحير المؤمنين وتخرجهم على قواعد الإيمان والدين الصحيح وأصدر الملك حكمه بتعذيبه أولا ثم موته ثانيا».

ألقى بمانى مقيدا بالأغلال فى ساحة السجن فوضعت ثلاث سلاسل حول يديه وثلاث أخرى حول قدميه وواحدة حول رقبته.. ورزح تحت ثقل القيود الحديدية.. فكان ضئيلا.. نحيلا.. متألما وكان يسمح لزواره برؤيته.. فكان أتباعه يلقون عليه الزهور وينشدون الأشعار التى تمجده.. وكان «مانى» لا يكف عن إعطاء النصائح لأتباعه وترتيب شئون طائفته.

وظل فى قيوده ستة وعشرين يوما وهو يئن كل يوم من الآلام التى تسببها له حتى انهار وعمره ستون عاما.. وصعدت روحه فى شهر «شاه ريفر» الإيرانى مارس عام ٢٧٤م وحضر وفاته راهب مانوى اسمه «عزاى» مع اثنين من الصدقيين».

مات مانى.. ولم يشعر بهرام بالراحة بعدما لم يستطع أن يجد إجابة على سؤاله الذى وجهه لمانى أثناء محاكمته.. لماذا يأتى الوحى لمانى ولا يأتى لأبناء الآلهة.. شابور وأبنائه.. وكان بهرام يرغب وبشدة بإنهاء أسطورة مانى.. فأمر أن يتم غرز عامود من الحديد المشتعل فى جسد مانى حتى يتأكد من موته وأصر بقطع رأسه وسلخ جلده وحشوه بالقش وتعليقه على أسوار مدينة «بيت ـ لابات» ثلاثة أيام.. سارع بعدها أتباعه

إلى جمع ما تبقى من بقايا جسده المتناثرة وقاموا بدفنها فى مدينة «طيسقون» القريبة من المدائن ولم تنته المانية بوفاة مانى.. بل ازداد انتشارها بعدما ألهب حماسة أساقفتها وكهنتها الموت المأساوى لنبيهم المزعوم حتى أن الجدار الذى علقت عليه جثته تحول إلى مزار مقدس.. وأصبح يوم موته عيدا مقدسا لدى المانيين وظل الغائب الحاضر لديهم حتى أنه فى العيد الذى أسموه «بيما» ذكرى لمقتله يوضع سرير فارغ يرمز فيه إلى مكان جلوس مانى وعلى الجانبين يقف الأساقفة بزيهم المفخم..

وبعد موت مانى ترأس المانية «سيسى» أحد أقرب معاونى مانى بوصية منه وأقام فى بابل التى أصبحت هى المقر الرسمى والمقدس لأبناء الطائفة الذين تعرضوا بعد مقتل مانى لصنوف من العذاب والاضطهاد والتشريد جعل الكثير منهم يتفرقون فى أنحاء الأرض هاربين بدينهم.. وحرص من تمسك منهم بالبقاء فى بابل والمدائن على ممارسة طقوس المانية بصورة سرية هربا من اضطهاد رجال الدين الزرادشتيين ورغم محاولات عمرو بن عدى أحد ملوك الحيرة والذى يعتنق المانوية فى الأعوام ما بين ٢٧٠م إلى ٣٠٠م حماية أتباع مانى إلا أنهم تفرقوا فى كثير من البلدان.. وظلت المانوية قائمة وعرفوا بعد ذلك «عند العرب بالزنادقة» وهى كلمة فارسية وتعنى أتباع «زندق» وتشير إلى الديانة المجوسية وأشهر من اتهم باتباع المانية كان ابن المقفع الذى ترجم عددا كبيرا من الكتب المانية من الفارسية إلى العربية والشاعر الشهير بشار بن برد وواجه أتباع المانية مقاومة شديدة من السلطات من خلال العصر العباسى لاتهام كثير من المقربين إلى الخلفاء العباسيين باعتناق المانية حتى أنه يقال كما جاء فى «الفهرست» لابن النديم إن «البرامكة» كلهم ما عدا محمد بن خالد بن برمك كانوا من المانية أو من «الزنادقة» كما كان يطلق عليهم فى ذلك الوقت ويقال إن محمد بن عبيد الله كاتب المهدى كان زنديقا وأنه اعترف بذلك فقتله المهدى.

ويروى «المسعودى صاحب «مروج الذهب».. قصة تحمل الكثير من الطرافة وفى نفس الوقت تبين كيف كان يتم مطاردة المانيين والتخلص منهم.. بمجرد اكتشاف انتمائهم إلى عقيدة مانى.. والقصة حدثت أيام الخليفة العباسى المأمون.. «الذى بلغه خبر عشرة من الزنادقة، ممن يتبعون قول مانى بالنور والظلمة من أهل البصرة.. فأمر

بحملهم إليه بعد أن تم تسميتهم لديه.. فلما جمعوا رآهم رجل طفيلى فقال ما اجتمع هؤلاء لصنيع.. فدخل فى وسطهم ومضى معهم وهو لا يعلم بشأنهم حتى صار بهم الموكلون إلى السفينة.. فقال الطفيلى نزهة لا شك فيها.. فدخل معهم السفينة فما كان بأسرع من أن جىء بالقيود فتم تقييد القوم ومعهم الرجل الطفيلى.. فقال بلغ أمر تطفلى إلى القيود ثم أقبل على الشيوخ فقال من أنتم قالوا.. من أنت؟! قال والله ما أدرى غير أننى رجل طفيلى خرجت فى هذا اليوم من منزلى فلقيتكم. فرأيت منظرا جميلا وعوارض حسنة.. وبزة ونعمة.. فقلت شيوخ وكهول وشباب جمعوا لوليمة فدخلت فى وسطكم وكأنى أحدكم.. فصرتم إلى هذا الزورق.. فرأيته فرش بهذا الفرش.. ورأيت سفرا مملوءة وسلالا.. فقلت نزهة يمضون إليها إلى بعض القصور والبساتين.. إن هذا اليوم مبارك.. فابتهجت سرورا.. إذ جاء هذا الموكل بكم فقيدكم وقيدنى معكم.. فورد على ماقد أزال عقلى.. فأخبرونى ما الخبر؟ فضحكوا منه وتبسموا ومزحوا به وسروا.. ثم قالوا الآن قد حصلت فى الإحصاء وأوثقت فى الحديد، وأما نحن فمانوية قبض علينا بأمر المأمون.. وسندخل إليه.. ويسائلنا عن أحوالنا ويستكشفنا عن مذهبنا ويدعونا إلى التوبة والرجوع عنه.. بامتحاننا بضروب من المحن منها إظهار صورة مانى لنا، ويأمرنا أن نبصق عليها ونتبرأ منها.. ويأمرنا بذبح طائر ماء وهو «الدراج» فمن أجابه إلى ذلك نجا ومن تخلف عنه قتل.. فإذا دعيت وامتحنت فأخبر عن نفسك واعتقادك على حسب ما تؤديك الدلالة إلى القول به.. وأنت زعمت أنك طفيلى.. والطفيلى يكون معه مداخلات وأخبار.. فاقطع سفرنا هذا إلى مدينة بغداد بشىء من الحديث وأيام الناس.

فلما وصلوا إلى بغداد وأدخلوا على المأمون جعل يدعوهم بأسمائهم رجلا.. رجلا.. فيسأله عن مذهبه فيخبره بالإسلام.. فيمتحنه ويدعوه إلى البراء من مانى.. ويظهر له صورته ويأمره أن يبصق عليها والبراء منها وغير ذلك فيأبون فيمرهم على السيف حتى بلغ الطفيلى بعد فراغه من العشرة.. ولم يبق إلاه.

فقال المأمون للموكلين.. من هذا؟! قالوا.. والله ما ندرى.. غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به.. فقال له المأمون.. ما خبرك؟ قال ياأمير المؤمنين.. امرأتى طالق إن كنت

أعرف من أقوالهم شيئا.. وإنما أنا رجل طفيلى.. وقص عليه خبره.. من أوله إلى آخره فضحك المأمون.. ثم أظهر له الصورة فلعنها وتبرأ منها.. وقال والله ما أدرى ما مانى أيهوديا كان أم مسلما»..

انتشرت «المانوية» بعد مقتل مؤسسها الذى تحول لدى أتباعه إلى نبى شهيد تحيط به القداسة.. حتى وصلت إلى الصين.. وبلغ أحد دعاتها مرتبة عالية لدى بلاط الإمبراطور الصينى عام ٧١٩م بعد أن ذاع صيته فى علوم الفلك والتنجيم وتمكن من تشييد معبد فى بلده مما أثار حوله شكوك كهنة البوذية مما دفع الإمبراطور إلى إصدار مرسوم إمبراطورى ضد المانوية فى عام ٧٣٢م جاء فيه «إن عقيدة مار مانى عقيدة فاسدة.. فاسدة تماما.. وهى تتخذ اسم البوذية بشكل زائف وتضلل الناس وينبغى حظرها رسميا لكن بما أن هذه العقيدة الطبيعية للبرابرة الغربيين وأناس آخرين فلن تعد ممارستها من قبلهم جريمة».

ومن الصين إلى الهند إلى أواسط آسيا عاشت المانوية التى مازال لها بعض الأتباع المتناثرين فى أنحاء الأرض يحملون دعوة «مانى» ذلك الفتى ضئيل الحجم الذى حرم من حنان أمه وهو طفل صغير.. بعد أن انتزعه أبوه منها ليعيش بعد ذلك وسط مجتمع ذكورى ساهم بشكل أساسى فى تشكيل ملامح دعوته بعد ذلك التى جعل فيها المرأة حراما والطعام حراما والإنجاب مكروها ومالت دعوته بكاملها إلى التشاؤم والضيق من الحياة مما جعله يطلق لخياله العنان فى تصور قصة الخلق.